في الأدب العربي

العوامل المؤثرة في الادب ٩٧

١

ليس الأدب الا التعبير القوى الصادق عن مشاعر المرء وخواطره وأخيلته . وهذه تتأثر بأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة ، ومن المفيد الالمام بهذه العوامل المؤثرة في الأدب لتكون دستور المؤرخ وشريعة الأديب ونبراس الباحث فيما يصدر عن الانسان من كد الأذهان وفيض القرائح .

فمن هذه العوامل (طبيعة الاقليم ومناخ البلد) وأثرهما في حياة الناس وسلائل الأجناس معلوم في بداهة العقول . فأحوال الاقليم هي التي تهيج لساكنيه سبل معاشهم ونظام اجتماعهم . وتكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم . ومناظره هي التي تربي ذوق أبنائه ، وتغذي خيال كتابه وشعرائه . فالشعر الجاهلي مثلا صورة صادقة لطبيعة البادية وحياة البدو : فألفاظه خشنة كالجبل ، ومعانيه وحشية كالأوابد ، وأساليبه متشابهة كالصخر ، وأخيلته بعيدة كالقفر ، ولن تجد في غير الجزيرة العربية أمثال الشنفرى وتأبط شراً والسليك بن السلكة من هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين تغنوا بحياة البادية ومناظرها وأباعرها وغزلانها وكثبانها واطلالها وجبالها بشعر متين الحبك صادق الوصف جاف اللفظ عنجهي الخيال . وقد اختلف الشعر في شبه الجزيرة نفسها باختلاف الأماكن : فهو في نجد غيره في الحجاز ، وهو في أهل الوبر غيره في أهل المدر . ولهذا العامل وحده تعزو انقراض الأراجيز وهي أقدم الأطوار لشعر البادية حين ارتحل ناظموها من الصحارى المجدبة الى سواد العراق وريفه . وفي حواشي العراق وظلاله ، وخمائل نجد وجباله .. اخضر عود الشعر واستقام وزن القصيد ومن ثم قال القدماء ان امرأ القيس ومهلهل بن ربيعة وعمرو بن قميئة هم أول من قال الشعر وأطال القصائد ، وما كانوا في الواقع الا زعماء النهضة الأدبية في هذه البلاد .

وظل عامل الطبيعة يفعل فعله في الأدب خلال القرون فخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس . فقد وجد شعراء العرب في اوربا ما لم يجدوه في آسيا من الاجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والامطار المتصلة والجبال المثوجة بعميم النبت . والمروج المطرزة بألوان النور . فهذبوا الشعر وتأنقوا في ألفاظه ومعانيه ، ونوعوا في أوزانه وقوافيه ، ودبجوه تدبيج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر . وسلكوا به مسلك التنوع والتجديد . وهذا العامل هو الذي يخالف اليوم بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق . فالطبيعة المصرية تكاد أن تكون نائمة : فالجو معتدل في جميع الفصول لا يكاد يختلف . وحقول الوادي الخصيب لا تعرى من الزهور والزروع ، والسماء السافرة والصحراوان الوسيعتان لا تكاد مناظرهما تتغير . فاذا لم تكن طبيعة بلادنا نائمة فهي على الأقل سالة ، لأنها لا تزعجنا بالزلازل العنيفة ، ولا تهزنا بالعواصف الرعن . ولا تخزنا بالبرد القارس والحر اللافح . فطبعت أهلها على الوداعة والفكاهة والبشاشة والكسل والمحافظة على القديم من العادات والأخلاق والآداب فلا تتطور هذه الأمور في مصر الا بمقدار . ولذلك تجد شعرنا منضد اللفظ جيد السبك بطيء التجدد هادىء الاسلوب لين العطف لا يأخذ الأمور الا بالملاينة والرفق . بينما تجد الشعر في الشام شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد قلق الاساليب لتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة ونشاط الحياة . وهو في العراق قوي أبي ثائر ساخط متوثب منتشر على ألسنة الخاصة والعامة لالتهاب المخيلة وتوقد الشعور وصفاء الحس من افراط الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على كثرة السكان .

على أن هذا العامل قد أخذ يضعف منذ أواسط القرن الماضي لسهولة المواصلات وكثرة المخترعات وانتشار المدنية ، فيستطيع الانسان ان يعيش في آسيا وافريقا كما يعيش في اوربا . وسيزداد ضعفا في المستقبل دون أن يمحى ويبيد .

ومنها (خصائص الجنس) فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان في المذهب والخيال والغرض ، وشعر ابن الرومي يختلف عن شعر ابن المعتز وقد نشآ في بلد واحد وعصر واحد . لأن الجنس الآري أميل الى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق ، والجنس السامي لذكاء قلبه وحدة خاطره يفهم الشيء في لحظة ، ثم يلخصه في لفظة ،

فهو أميل الى التعميم والاجمال والبساطة .

ومنها (دوام الحرب بين جنسين أو أمتين لفتح بلاد أو صد عاد أو تحرير وطن) . فان هذه الحروب تتمخض عادة عن أبطال ينمون فى الخيال ، ويعظمون فى الصدور ، ويكبرون فى الزمن ، حتى تنسب اليهم الخوارق . وتخلع عليهم المحامد ، فتسير بذكرهم الرواة ، وتتحدث بأفعالهم القصاص . وتنقل شهرتهم من فم الى فم ومن جيل الى جيل ، وهى فى خلال ذلك تنمو وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثاً وطيباً يحب أن ينشر . وتراثاً قومياً يحرص على أن يزيد . فيفيض الله لهذه السير المتجمعة على طول الدهور شاعراً سمح القريحة فينظمها بأسلوب شائق ونمط جميل ، كذلك دارت الالياذة الاغريقية على حروب اليونان لأهل طروادة . ومهابهارانه الهندية على الحرب التى نشبت بين بندهو وبنى كرو ، والشاهنامة الفارسية على تاريخ الاكاسرة ووصف الحرب التى اشتعلت بين أهل ايران وأهل طوران ، وقد كانت تلك الحروب مفخرة الفرس الاولين ورمزاً للخلاف الدائم بين الهى الخير والشر ، وكذلك دارت أغانى رولان الفرنسية على حروب الفرنج لعرب الأندلس . وهذا هو الشعر القصصى Epique أو الملاحم Epoupé الذى خلا منه الشعر العربى لأسباب لا يتصل ذكرها بموضوع اليوم » . على أن عامل الحروب قد أثر فى النثر العربى والشعر العامى وان لم يؤثر فى الشعر الفصيح . فان نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بنى هلال والاميرة ذات الهمة إثارة للنفوس وتحميساً للشعب وتفريجاً من الهم .

ومنها — طبيعة العمران وتوزع الثروة وما يتصل بذلك من حال الاجتماع — فان تقدم الحضارة ورخاء العيش ونماء الثروة تؤثر فى الذوق ، وتزيد فى الصور : وتساعد على نشر العلوم ، وتنوع فى معانى الشعر وأساليب الكتابة . وشاهد ذلك أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان الى أواخر القرن الاول للهجرة تدفق أهلها فى اللهو وعكفوا على الغناء وألفوا أزمتهم فى يد الصبابة . وانقطع شعراؤها الى الغزل فأفتنوا فيه وتصرفوا فى معانيه وأغفلوا سائر أنواع الشعر الاخرى كعمر بن ابى ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزه . وشاهد آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية فى الفنون الادبية هو شيوع البذاء والفحش فى شعر بعض البغداديين على عهد الرشيد والمأمون . فقد حدث شىء من ذلك فى الجاهلية وفى العصر الاموى حين كان الفرزدق وجرير ومن لف لفهما يتجاوبون بالفحش ويتهاجون بالبذاء ، الا ان ذلك لم يكن مقصوداً لذاته ، وانما كان يقال هجاء للعدو وسباباً للخصم . اما الفحش فى شعر أبى نواس ومطيع بن اياس وحسين الضحاك وابن سكرة الهاشمى وابن الحجاج فقد كان صادراً عن خلق وناقلا عن طبع ومعبراً عن حالة . فالشعراء يقولونه ويفعلونه ، وأهل البوتات وذوو المثالة يسمعونه ولا ينكرونه . فما دا بعد ذلك الفساد الذى نال الطباع العربية الحرة فجعلها تمتهن الكرامة وتلقى شعار الحشمة ؟ ؟ اذا علمناء بمفاسد الترف حين تطغى الحضارة ويثور البطر كان هذا التعليل وحده غير فاصل ولا مقنع فان أكثر أمم التمدن الحديث اليوم قد غرقوا فى اللهو وشرقوا بالنعيم وامعنوا فى الخلاعة ، ثم لا تجد الروائع من شعرائهم وكتابهم يجرأون على ان ينعوا على أنفسهم بالفواحش أو يجهروا فى كسبهم بالفضائح . وناهيك بما حدث لفكتور مرجريت حين نشر قصة لاجرسون .

انما الاشبه بالحق ان هناك سبباً آخر يساعد هذا السبب وهو كثرة الرقيق . وتأثير الرقيق انما حدث من جهتين : أولاهما قيام العبيد على تربية الاحداث فى كرائم الاسر ، وفى كثرة العبيد دناءة فى الطباع ووقاحة فى القول فافسدوا النشء وعودوهم هجر القول وفحش الحديث ، وأخراهما اقحام الجوارى والسرارى خدور العقائل فاعدينهن من أخلاقهن بالمجانة ، فسقطت المرأة من عين الرجل فاخذها بالعنف وضرب عليها الحجاب وأقام عليها الحصية على عادة الفرس واقصاها عن تربية الولد وتدبير البيت واتخذها للمتاع واللذة ، فكان من ذلك ان نشت فى الخاصة اخلاق العبيد والاماء فتادروا بالفحش وأكثروا الشعر فى الاحماض والمجون(١) وإليك شاهدا آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية والامور المادية فى فنون الآداب : ظهر ادب العامة أو الشعر باللغة العامية فى بغداد والاندلس فى عصر واحد ، ففى بغداد ظهر الموالياء على لسان صناع البرامكة من العامة ، وظهر نوع آخر ذكره ابن الاثير صاحب المثل السائر قال : (بلغنى ان قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل فى شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك فى كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب ، وسمعت شيئا منه فوجدت فيه معانى حسنة مليحة وان لم تكن الالفاظ التى صيغت بها صحيحة) ولكن الشعراء والادباء استخفوا به واحتقروه فلم يقلدوه ولم يدونوه

(البقية على صفحة ٢٥)

(١) وهناك سبب ثالث لكثرة الشعر المجون فى هذا العصر هو ان الشعراء ما كانوا يعدون أشعارهم للنشر كدأبنا اليوم وانما كانوا ينولونه فى مجالس الخاصة فتذيعه الالسنة ويدونه المولعون فلو انهم كانوا يكتبون للنشر لتحرجوا من أكثر المنثور .